

بدر (١)

١ - ما كاد يستقرُّ أمرُ المهاجرين بالمدينة حتى عُقدت أواصرُ المحبة بينهم وبين الأنصار، فعاشوا بها إخواناً متآلفين، وجيراناً متعاونين، غير أنهم لم ينسُوا ما حاق بهم من إيذاء خصومهم بمكة، وما برحُوا يتطلعون إلى نشرِ دينهم، ويستشرفُونَ إلى وطنهم، ويهيِّمون بوادِيهم الذي فيه نشئوا، ومن مائة شربوا، ومن هوائه تنفَّسوا، وفيه أبنائهم وأقاربهم، وخؤولتهم وعمومتهم، وطريفهم^(٢) وتليدهم.

ورأى هؤلاء - الذين اضطروا إلى الجلاء عن مكة بسبب ما عانوا من الاضطهاد، وما لاقوا من الأذى - أن لا بدَّ من التعرُّض لتجارة قريش: في ذهابها أو رجوعها، حتى يحسَّ هؤلاء قوتهم، ويشعُّروا بأسهم، وحينئذٍ يخافون على تجارتهم أن تَبُورَ، وقوافلهم أن ينقطعَ بها الطريق، فيزول ما بينهم وبين المهاجرين من إحن، ويصْفُوا ما بينهم من كدر، وينفسح المجالُ أمام المسلمين لنشرِ دينهم، والدعوة إلى عقيدتهم.

في السنة الثانية في الهجرة، بعث رسول الله عبد الله بن جحش، ومعه جماعة من المهاجرين، ودفع إليه كتاباً، وأمره ألا ينظرَ فيه إلا بعد يومين من مسيره، فيمضي لما أمره الله به، ولا يستكره أحداً من أصحابه.

ويمضي عبد الله في طريقه، وهو لا يعرفُ له وجهة، ولا يقصد إربة^(٣)، ولكنه يندفع في سيره، طوعاً لأمر الله، وتنفيذاً لإشارته، ثقةً بالله، واطمئناناً إلى رأي رسوله ﷺ.

سار يومين كاملين، ثم فتح الكتاب، فإذا فيه: «إذا نظرتَ في كتابي هذا فامضِ حتى تنزلَ نخلَة بين مكة والطائف، فترصدْ بها قريشاً، وتعلمَ لنا من أخبارهم».

(١) بدر: ماء بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين الجار.

(٢) الطريف: المستفاد من المال حديثاً ويقابله التليد.

(٣) الإربة: البغية.

وأعلن في أصحابه أمر الرسول، وقال لهم: أمرني رسول الله أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشاً، حتى آتية منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره منكم أحداً، فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها فليَنطَلِقْ، ومن كرهه، ذلك فليرجع، فأما أنا فمأضٍ لأمر رسول الله ﷺ.

فاستجابوا لدعوته، واستعدوا لمعاونته، وساروا جميعاً نحو غرضهم الأسمى، تدفعهم الثقة بالله ورسوله، وتحذوهم عناية الله، وتشدُّ من أزهرهم قوته، ولكن اثنين منهم ضلَّ منهما بغير، كانا يتعقبانه، فتخلفا في طلبه، فأسرتهما قريش.

ومضى عبد الله وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، ومرت به غيرُ لقريش تحمِلُ تجارة لهم، وما إن رأوه، حتى فرغوا لتلك المفاجأة، ودُهِشُوا لهذه المقابلة، وتشاور أصحاب عبد الله فيما بينهم، فقال قائل منهم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن المسجد الحرام، فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهن لتقتلنهم في الشهر الحرام.

فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، وخافوا أن يقاتلوهم، ولكنهم ما لبثوا أن أقدموا على الاشتباك معهم، وأجمعوا أخذ ما يحملون من مالٍ ونسب.

التقى الخصمان، فرمى وأقد بن عبد التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفاء الله على المسلمين ما كانوا يحملون من أموال، وخلص لهم ما جمعوا من تجارة.

٢ - أقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالغير وبالأسيرين، حتى قدموا بهما على رسول الله ﷺ في المدينة، فلما رآهم، وعلم أنه قد التقى الفريقان، فانهزم المشركون وفاز المسلمون بالغلبة والنصر، قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام».

ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، حتى يفصل الله في أمرهما بحكم، ويقضي في شأنهما بوحى.

وسقط^(١) في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعنتهم إخوانهم من المسلمين فيسا صنعوا، واثارت نائرة قريش حين علموا بالتعرض لتجارتهن، وإيذاء قومهم، وقالوا:

(١) مُسْقَطٌ فِي يَدِهِ: نَدِمَ وَتَحِيرَ.

قد استحلَّ محمدٌ وأصحابُه الشهرَ الحرامَ، وسفكُوا فيه الدَّم، وأخذُوا الأموالَ، وأسروا الرجالَ .

ولكنَّ الله أنزل عن هؤلاء المجاهدين رَحْمَتَه، وأظْلَمَهم بعطفه ورعايته، وأوحى إلى نبيه الكريم: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾^(١) .

فلما نزل هذا القرآن، وفرَّج اللهُ عن المسلمين ما كانوا فيه من الشَّفَقِ^(٢)، سُرِّي عن أصحاب هذه السَّريَّة، وانقشعت غِيَاهِبُ الحزن عن تلك الفئة المقاتلة، وقبضَ رسول الله ﷺ العيرَ والأسيرين .

ثم بعثت إليه قريش، تطلبُ منه فداءَ أسيريهما، ولكنه أبى إلا أن يكونَ ذلك بردَ صاحبيه اللذين أسروهما، وقال ﷺ: «لا فداء حتى يقدمَ صاحبانا، فإننا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتلُ صاحبيكم» .

فتزلوا على رأيه، واستسلموا لشرطه، وردُّوا إليه أسيريه، وأتمَّ اللهُ نعمته على المسلمين، وأنجز لهم وَعْدَه، إذ أيدهم بنصره .

أما عبد الله بن جحش وأصحابه، فما تجلى عنهم ما كانوا فيه من الحزن، وانقشعَ ما غمرهم من اليأس، حتى طَمِعُوا في الأجر، وتطلعوا إلى الثواب، فقالوا: يا رسول الله، أنطمعُ أن تكونَ لنا غزوةٌ، نُعطى فيها أجر المجاهدين؟ فأنزل اللهُ في شأنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٣) .

بذلك انجابت أحرانهم، اطمأنت قلوبهم، وشاع السرورُ في نفوسهم، إذ غمرتهم نعمة الله، وأظلتهم رحمته .

كانت هذه السَّريَّة مفترقَ طرق في سياسة الإسلام، وأوَّلَ دِعاة استقر بها نظامه، وقام عليها عمادُه؛ فيها أُجيبَ المشركون على تساؤلهم عن القتال في الشهر الحرام بأنه

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢١٧ .

(٢) الشَّفَق: الشفقة وهي الخوف من حلول مكروه .

(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢١٨ .

كبير، ولكن هناك ما هو أكبر منه، وهو الصدُّ عن سبيل، الله، وردُّ المسلمين عن دينهم بالوَعْدِ والوَعِيدِ، والخوف والتهديد، والكفر بالله، وإخراج أهل المسجد الحرام منه . . . وهذا هو ما ارتكبه المشركون، وما اقترفه أعداء المسلمين، لذلك شُرِعَ بعد ذلك قتالُ من يَصُدُّون عن دين الله، وَيَقْتِنُونَ النَّاسَ عن عقيدتهم التي رسخت في نفوسهم، وتمكَّنت من قلوبهم.

٣ - شعرت قريش بالحطِّ من كرامتها وعزَّتها، والنَّيل من بأسها وقوتها، إذ أُغِير على أموالها، وقتلَ أبنائها، وأسِرَ رجالها.

لذلك حاولوا إثارة شبهة الجزيرة كلَّها على محمد ﷺ وأصحابه: أن قاتلوا في الشهر الحرام، حتى لقد أيقنَ المسلمون أن لم يَبَقَ في مُصَانَعَتِهِمْ^(١) أو الاتفاق معهم رجاء.

وكان يومٌ أخبر فيه النبيُّ المسلمين أن أبا سفيان بن حرب قد أقبل من الشام في غيرِ لقريش، فيها أموالهم وتجارَتُهُمْ، وندبهم^(٢) إليها، وقال لهم: «هذه غيرُ لقريش فاخرجوا إليها لعل الله يُنْفِلَكُمُوهَا»^(٣).

فخفَّ بعضهم وثقل بعضهم لأنهم ما كانوا يظنُّون أن النبي يلقى حرباً.

أما أبو سفيان فقد كان يتحسَّسُ الأخبارَ، ويتسمَّعُ الأنباء، ويسألُ مَنْ لقي من الأعراب، تخوفاً على تجارته، وحِرْصاً على أمواله، فأصاب خَبِراً مِنْ بَعْضِ الرُّكْبَانِ: أن محمداً قد استنفر^(٤) أصحابه لك ولعيرك، فخاف العاقبةَ، وَحَذَرَ الأمر، وأراد أن يأخذ للأمر عُدَّتَهُ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري وأرسله إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً، فيستنفرهم إلى أموالهم، ويُخبرهم أن محمداً قد عرضَ له في أصحابه.

٤ - قال العباسُ بن عبد المطلب - ولقد لَقِيَ الوليدَ بن عتبةَ بمكة: إن عاتكة قد رأت رؤيا أفرعتها، ولما قصتها عليّ تخوفتُ أن يدخل على قومك منها شرٌّ ومُصِيبَةٌ . . . قال الوليد: وماذا رأت؟ قال: رأت راكباً أقبل على بَعِيرٍ له حتى وَقَفَ بالأبطح،

(١) المصانعة: أن تصنع لغيرك شيئاً ليصنع لك آخر مقابله.

(٢) ندب: دعا.

(٣) نفل فلاناً: أعطاه نافلة من المعروف.

(٤) استنفر بني فلان: استنجدهم.

ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انْفِرُوا يَا لَعْدَرُ^(١) لمصارِعِكُمْ في ثلاث! ثم دخل المسجد والناسُ يتبعونه، فبينما هم حَوْلُهُ مَثَلٌ^(٢) به بَعِيرُهُ على ظَهْرِ الكعبة، ثم صرخ: ألا انْفِرُوا يَا لَعْدَرُ في ثلاث! ثم مَثَلٌ به بَعِيرُهُ على رأس أبي قُبَيْسٍ^(٣)، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرةً فأرسلها، فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ترفضت فما بقي بيتٌ من بيوت مكة، ولا دارٌ إلا دخلها منها فلقمة، ها هي ذي رؤياها، فاکتم عني ما أُحَدِّثُك به . . . ولكن الوليد حدث أباه بها وفشا أمرها حتى أصبحت حديث قريش في أُنْدِيَتِها، ومثار الجدل في مجالسها.

وغدا العباسُ يطوفُ بالبيت، وأبو جهل في رَهْطٍ من قريش قُعودٌ يتحدثون برؤيا عاتكة أُخْتِهِ، فلما رآه أبو جهل قال: يا أبا الفضل، إذا فَرَعْتَ من طوافك، فأقبل إلينا.

فلما فرغ جلس معهم، فقال له: يا بني المطلب، متى حدثت فيكم هذه النَّبِيَّة؟ قال العباس: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأتها عاتكة. قال: ما رأت؟ قال أبو جهل: يا بني المطلب، أما رَضِيتُم أن يتنبأ رجالُكم حتى تتنبأ نساؤُكم! قد زعمت عاتكة في رؤياها أن راكباً قال انْفِرُوا في ثلاثٍ. فستربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقاً ما تقول، وإلا كنتم أكذب أهل بيتٍ في العرب. . . فأنكر العباسُ أن تكون قد رأت شيئاً، ثم افترقوا.

وأمسى المساء فلم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتت العباس، وصيخن به، فقلن له: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول نساءكم وأنت تسمع؟ ثم لم يكن عندك غيرةٌ لشيءٍ مما سمعت؟

قال العباس: قد والله فعلتُ، ما كان مني إليه من كبير، وأيُّم الحقُّ لأعرضنَّ له، فإن عاد لأكفيكته.

وغداً إلى المسجد في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، وهو حديدٌ مغضب، يرى أنه

(١) غَدَرُ الرجل: نقض عهده وترك الوفاء به فهو غادر ويقال في أسلوب النداء فحسب: يا غَدْرُ للواحد كما يقال للجمع يا آل غَدْر.

(٢) مَثَلٌ: قام منتصباً.

(٣) أبو قبيس: جبل شرف على تلة وجهه إلى قيقعان ومكة بينهما.

قد فاته أمرٌ يجبُ أن يُدرِكَه، ودخل المسجد، فرأى أبا جهل ومشى نحوه يعترضُ له لِيُعوَدَ لِبَعْضِ ما قال فيمَعَه به .

ولكنه رأى أبا جهل يتَّجِه نحو باب المسجد؛ فظنَّه قد فرَّق منه أن يُشَاتمه، ولكنه كان قد سمع صوتاً لم يسمعه، ورَنَ في أذنه صدَى لم يَعْهَدَه، فشُغِلَ به، وخرج إليه .

٥ - كان ضَمَضُمُ بنُ عَمْرُو الغِفَارِي رسولُ أبي سفيان قد وصل إلى مكة، ووقف على راحلته، وقد جَدَعَ^(١) أنْفَ بعيره، وحوَّلَ رَحْلَه، وشقَّ قميصَه من قُبَل ومن دُبُرٍ، وجعل يصيح: يا معشر قريش؛ اللطيمة^(٢) اللطيمة! أموالكم مع أبي سفيان قد عَرَضَ لها محمد في أصحابه، ولا أرى أن تُدْرِكوها، الغوث الغوث!!

وشُغِلَ الناسُ بهذا الأمر، واجتمعوا يُجِيلون قِداحَ الرأي، ثم أجمعوا على أن يتجهَّزُوا سِرَاعاً، فكانوا بين رَجُلَيْن: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبت قريش، فلم يتخلف من أشرافها أحد، إلا أبا لهب؛ فقد بعث مكانه من استأجره بأربعة آلاف درهم، كانت ديناً عليه .

ولما أجمعوا سَيْرَهُم، وفرغوا من جهازهم ذَكَرُوا ما كان بينهم وبين كنانة من إْحْنٍ، وم وقع بينهما من حُرُوب، وقال قائل منهم: إننا نخشى أن يأتونا من خَلْفِنَا، وكاد ذلك يثنيهم، ويقعدُ بهم عن الخروج، ولكن سُرَاقَةَ بن مالك - وكان من أشراف كنانة - قال: أنا لكم جَارٍ من أن تأتيكم كنانة من خَلْفِكُمْ بشيء تكرهونه . إذ ذاك رجحت كَفَّةُ رأيِ الدُّعَاةِ إلى الخروج، ولم يَبْقَ بمكة متخلف قادرٌ على القتال .

٦ - أما محمد فقد خرج من المدينة وأمامه رَايَتَانِ سَوْدَاوَان: إحداهما مع علي بن أبي طالب، والأخرى مع الأنصار . وسار أصحابه يتعاقبون^(٣) في الإبل، حتى إذا لقيَ رجلاً من الأعراب سأله عن الناس، فلم يجدْ عنده خَبيراً، فواصلوا السير والسرى حتى إذا كانوا قريباً من الصفراء^(٤) بعث رسولُ الله من يتَحَسَّس أخبارَ أبي سفيان بن حرب، وسار

(١) جدع: قطع أنفه أو طرفاً من أطرافه .

(٢) اللطيمة: عير تحمل المسك والبرِّ وغيرهما للتجارة .

(٣) تعاقب القوم في الشيء: تناوبوه .

(٤) الصفراء: وادي الصفراء من ناحية المدينة فوق ينبع مما يلي المدينة .

حتى كان بِذَفْرَانَ^(١) نزل به، فأتته العيون تُخْبِرُهُ أَنَّ قَرِيشًا قَدْ سَارَتْ إِلَى أَبِي سَفْيَانَ، لِيَمْنَعُوا عَيْرَهُ.

استشار النبي أصحابه فيما عرض لهم من أمر قريش، فقد تَغَيَّرَ وَجْهُ الأَمْرِ، وصار أمامَ عَدُوٍّ لا بدَّ أن يَلْتَحِمَ معه في حَرْبٍ، ويشتبك معه في قتال . . .

قام المِقْدَادُ بن عَمْرٍو، فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون؛ ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد^(٢) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال له النبي خيراً، ودعا له به. ثم قال ﷺ: «أشيروا علي أيها الناس» - وإنما يريد الأنصار - فقال سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله! قال: «أجل». قال: قد آمنا بك وصدقتك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدنا وميثاقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا في الحرب، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا، واستمد العون والتوفيق من الله.

وما إن أتمَّ كلامه، وانتهى من حديثه، حتى أشرق وجه الرسول، وشاع السرور في نفسه، ثم قال ﷺ: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين^(٣)»، والله لكأنني أنظرُ إلى مصارع القوم! وارتحلوا حتى نزلوا قريباً من بدر.

* * *

وبعث النبي بعض أصحابه إلى ماء بدر يتحسسون أخبارهم، فأصابوا رجلين يَسْتَقْبِيَانِ لِقْرِيشٍ، فأتوا بهما وسألوهما: إلى أين يذهبان؟ وإلى أي قبيلة ينتسبان؟ وأي غرض يقصدان؟ فقالا: نحن سقاه قريش بَعَثُونَا نَسْقِيَهُمْ مِنَ المَاءِ، فِكْرَهُ القَوْمُ خَبَرَهُمَا،

(١) ذَفْرَانَ: واد قرب وادي الصفراء.

(٢) برك الغماد: موضع وراء مكة مما يلي البحر.

(٣) الطائفتين: العير أو النفير.

وقد رجوا أن يكونا لأبي سفيان، فأنهالوا عليهما ضرباً، وأشبعوهما لطماً، فلما أذلقوهما^(١) قالوا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما.

ولما رأى النبي ﷺ ما كان من أصحابه - وقد كان يصلي - أقبل عليهم، يقول: «إذا صدقاكم ضربتموهما، وإن كذباكم تركتموهما؟! صدقا والله، إنهما لقريش».

ثم التفت إليهما يقول: «أخبراني عن قريش»، قالوا: هم والله وراء هذا الكئيب^(٢) الذي ترى بالعدوة^(٣) القُصوى. فقال رسول الله: «كم القوم»؟ قالوا: كثير. قال: «ما عدتْهم»؟ قالوا: لا ندرى. قال: «كم ينحرون كل يوم»؟ قالوا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً.

فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «القوم ما بين التسعمائة والألف» ثم أقبل على الناس فقال: «هذه مكة قد ألفت إليكم أفلاذ أكبادها».

٧ - هذا أبو سفيان قد تقدم غيره حذراً من أن يفاجئته أصحاب محمد، ولما علم بمكانهم، وأفضت إليه عيونه بمستور أمرهم، رجع إلى أصحابه سريعاً، وغير وجهه سيره، وجانب الطريق بعيره، وترك بَدْراً يساراً، وانطلق حتى أفلت من محمد وأصحابه، واستخلص غيره من بين أظفارهم.

ولمَّا رأى أنه قد استخلص غيره، وأحرز تجارته، ونَجَا بأمواله، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا غيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجوت بها فارجعوا... فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بَدْراً فنقيم ثلاثاً فننحر الجُزر^(٤)، ونُطعم الطعام ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان^(٥)، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجَمْعنا، فلا يزالون يهابونا أبداً بعدها، فأمضوا.

ولكن الأخنس بن شريق عارض رأيه، ونقض حُجَّتَه، وقال لبني زُهرة، وكان حليفاً لهم: يا بني زُهرة، قد نجت أموالكم، وخلص لكم صاحبكم، وإنما نفرتم

(١) أذلقوهما: أضعفوهما.

(٢) الكئيب: الرمل المستطيل المحدودب.

(٣) العُدوة: شاطئ الوادي وجانبه.

(٤) جُزر جمع جزور: ما يصلح لأن يذبح من الإبل. ويقال للبعير: هذه جزور سميته.

(٥) القيان جمع قينة: وهي الأمة صانعة أو غير صانعة وقد غلب على المغنية.

لتمنعوه وماله فارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة^(١)، لا ما يقول هذا. وقد كان الأخنس فيهم مطاعاً؛ فلم يشهدا زهرتي واحد. ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي.

وأسفر الصباح، والمسلمون في انتظار مرور العير بهم، فإذا الأخبار تصلهم أن أبا سفيان قد فاتهم، وأن مقاتلة قريش هم الذين ما يزالون على مقرية منهم، فدوى^(٢) في نفوس جماعة منهم الأمل الذي كانوا ينعمون به، وجادل بعضهم النبي ﷺ كي يعودوا إلى المدينة، ولا يلقوا القوم الذين جاءوا من مكة لقتالهم؛ فأنزل الله عليهم: ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَوَدُّوْنَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَع دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

فأجمع المسلمون أن يصدوا للعدو إذا اشتبكوا معه في القتال، وبادروا إلى ماء بدر، وبعث الله السماء فأصاب الوادي ماءً، لبّد لهم الأرض، ولم يمنعهم عن السير، وأصاب قريشاً منها ماء، فلم يقدروا أن يرتحلوا معه. وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به.

٨ - استقرّ بهم المقام، فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله؛ رأيت هذا المنزل أمّتلاً أنزلكّه الله ليس لنا أن نتقدمه، وألا نتأخر عنه أم هو الرأي، والحرب، والمكيدة؟!

قال النبي ﷺ: «بل هو الرأي والجهاد». قال: يا رسول الله؛ ليس هذا بمنزل، فأنهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم، فتنزله، ثم نغور^(٤) ما سواه من القلب^(٥) ثم نبي عليه حوضاً فتملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي». فساروا حتى إذا أتوا أدنى ماء من القوم نزلوا عليه، ثم أمر بالقلب فغورت ثم بنوا حوضاً وملئوه ماءً.

(١) الضيعة: العقار والأرض التي لها غلة أو التجارة بشكل عام.

(٢) ذوى: ضعف.

(٣) سورة: الأنفال، الآية: ٧.

(٤) غور الماء: أذهب في الأرض.

(٥) قلب جمع قلب: وهو البئر.

بنوا الحوض، وأخذوا عدتهم للقتال، وبينما هم يتحدثون ويتشاورون تقدم سعد بن معاذ قائلاً:

يا نبي الله؛ ألا نبي لك عريشاً^(١) تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك؛ فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام - يا نبي الله - ما نحن بأشد لك حُباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يتناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى رسول الله ﷺ على سعد ودعا له بخير، ثم بُني العريش للنبي، حتى إذا لم يكن النصر في جانبه وجانب أصحابه، لم يقع في يد عدوه، واستطاع اللحاق بأصحابه بيثرب، يؤذن فيهم بدعوته، وينشر بين غيرهم من العرب دينه.

٩ - ونزلت قريش منازل القتال، ثم بعثوا من يقض لهم خبر المسلمين، وجاء رائداهم ينبئهم أن أصحاب محمد ثلثمائة أو يزيدون أو ينقصون، وليس لهم كمين ولا مورد، ولكنهم مع ذلك قوم لا ملجأ لهم إلا سيوفهم، ولا منعة لهم إلا إيمانهم الثابت، ويقينهم المكين.

وداخل العرب قلوبهم، وخاف بعض ذوي الحكمة منهم أن يقتل المسلمون كثرتهم، فلا تبقى لمكة مكائنها؛ فقام عتبة بن ربيعة وقال: يا معشر قريش؛ إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته! فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك لم نتعرض لما تكرهون.

وبلغت أبا جهل مقالته، فاستشاط غيظاً، وذكّر القوم بما بينهم وبين المسلمين من إحن، وما فشا بينهم من عداوة، وما وقع من دماء، فأعجل ذلك القتال. وتزاحف الناس، والتنى الجمعان.

١٠ - ورأى رسول الله ﷺ كثرة أعدائه، ووفرة عدتهم، فخرج إلى أصحابه يشدد

(١) العريش: ما يستظل به.

من عزمهم، ويعدّل صفوفهم، ويأمرهم ألا يحملوا عليهم حتى يأمرهم، وقال لهم ﷺ: «إن اكتنفتكم القوم فأنضحوهم»^(١) عنكم بالنبل.

وعاد إلى العريش معه أبو بكر، وهو أشد ما يكون خوفاً من مصير أصحابه، وأكثر ما يكون إشفاقاً مما سيؤول إليه أمر الإسلام والمسلمين.

ثم لجأ إلى الله يستمد منه النصر، ويستنجز الوعد، وجعل يضرع إليه ويقول: «اللهم هذه قریش قد أتت بخيلائها»^(٢) وفخرها، تحادك^(٣) وتكذب رسولك. اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد.

وما زال يدعو ربه، باسطاً يده، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه. وجعل أبو بكر من ورائه يرد على منكبيه رداءه ويهيب به: يا نبي الله، بعض مناشدتك ربك! فإن الله منجز لك ما وعدك من النصر.

ولكن النبي ﷺ ظل فيما هو فيه من ضراعة إلى الله، واستغاثة بربه، حتى أخذته سنة، رأى خلالها نصر الله؛ إذ أوحى إليه: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدْرُونَ يَعْلَمُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَائَةٌ يَعْلَمُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٤).

فخرج النبي إلى أصحابه يحرضهم على القتال، فقال: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مُدبر، إلا أدخله الله الجنة». ثم أخذ حفنة من الحصباء، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: «شاهت^(٥) الوجوه» ثم أمر أصحابه، فقال ﷺ: «شدوا» فزاد المسلمون قوة، وصاحوا مهللين «أحد أحد!».

وأمدهم الله بالملائكة يُشرونهم، ويزدادون بهم يقيناً وإيماناً؛ ووقف النبي وسط المعمة^(٦) يقوي من عزيمتهم، ويشد من أزرهم، ويبشّرهم بنصر الله لهم.

(١) نضح القوم بالنبل: رماهم ففرقهم.

(٢) الخيلاء: التكبر والعجب.

(٣) حد فلان فلاناً: غاضبه وعصاه.

(٤) سورة: الأنفال، الآية: ٦٥.

(٥) شاه الشيء: قبح.

(٦) المعمة: صوت الشجعان في الحرب.

١١ - ازداد المسلمون قوةً بتحريض النبي لهم، ووقوفه بين صفوفهم، وأمدّهم الله بملائكته؛ فأكثروا في قريش القتل والسبي^(١)، وخاضوا وطيّس المعركة؛ فثار النقع^(٢)، وامتلاً الجوّ بالغبار، وجعلت هام^(٣) قريش تطير من أجسادها.

ورأى بلالٌ أميةَ بن خلفٍ يخطر في صفوف المقاتلين، ويسير وسط هؤلاء المشركين، وقد كان يُغريه بمكة أن يترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، ويضعه على ظهره، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحد أحد!

رآه بلال، فاقتحمته عينه، وأقبل نحوه. وقال: رأس الكفر أمية بن خلف! لا نعوذُ إن نجا. وحاول غيره أن يأسره، ولكنه صرخ بأعلى صوته، وأقبل عليه بسيفه فأرداه قتيلاً.

١٢ - وتبدد الغبار، وانجلت المعركة عن جثث هامدة، وأشلاء متناثرة، وولى أهل مكة الأدبار، كاسفاً بهم، خُشعاً من الذلّ أبصارهم.

وأمر رسول الله بالقتلى أن يطرحوا في القليب^(٤)، ووقف عليهم، فقال: «يا أهل التليب، بثت العشيّة كنتم لنيكم: كذبتوني، وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وقاتلتموني ونصرني الناس، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً!»

فقال له أصحابه: يا رسول الله، أتنادي قوماً قد جيّقوا^(٥)! فقال لهم: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم؛ ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني».

وبينما النبي في حديثه مع قومه في شأن قتلى قريش إذا أبو حذيفة بن عتبة كتيب قد تبيّر، فقال: «يا أبا حذيفة. لملك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟» فقال: لا والله يا رسول

(١) السبي: الأسر.

(٢) النقع: الغبار الساطع.

(٣) هام: جمع هامة، وهي الرأس.

(٤) القليب: البئر.

(٥) جيّقت الميتة: أنتنت.

الله، ما شككتُ في أبي ولا في مَصْرَعِه، ولكنني كنتُ أعرفُ من أبي رأياً وحلماً وفضلاً. فكنتُ أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام. فلما رأيتُ ما أصابه، وذكرتُ ما ماتَ عليه من الكفر، بعد الذي كنتُ أرجو له - أحزنني ذلك!

فَطْمَأَنه الرسولُ، ودعا له بخير. وانصرف المسلمون إلى الغنائم يجمعونها، وإلى الأسلابِ يَمْضُونُ أشتاتها، وهم ينصُرُ اللهَ فرِحون، ولنعْمَتِهِ شاكرون.

العتب في الفداء

عادت قريش يوم بدر كسيرة الفؤاد مقصوصة الجناح، يطأطئ الذك هاماتهم، ويعبُدُ^(١) الأسي أكبادهم، ويأكل الحقد لفائف صدورهم، فقد اشتبكوا مع رسول الله في يوم ثار فيه النقع، واشتبك القنا، وتلاقت الأبطال بالأبطال، ثم تكشف القتام^(٢)، وتجلي اليوم عن عشرات القتلى وعشرات الأسرى؛ دغ الغنائم والأسلاب، والخيل والركاب ولو أن أولئك القتلى وهؤلاء الأسرى كانوا من عامتهم ودهمائهم، أو صغارهم وسوادهم، لهان الخطب وخف المصاب، ولكنهم - ويا بؤس لهم - فقدوا رؤوسهم وشجعانهم، وبهاليلهم، وأعلامهم، فهم اليوم أشد ما يرؤن ذلة، وأعظم ما يكونون مهانة وانكساراً.

أما رسول الله - وقد عقد الله له النصير، واختار له التوفيق - فقد أمر بالقتلى أن تلقى في القليب أجسادهم، وأن توارى بالتراب أشلاؤهم، وعمد إلى الغنائم فقسمها عدلاً، ووزعها إنصافاً.

وجاء دور الأسرى: ماذا يفعل بهم؟ وكيف سلوكه معهم؟ وليس عنده - ﷺ - فيهم أمر صريح، أو حُكم منزل! عمد إلى صحابته يستشيرهم، ويتعرف الصواب في ضوء آرائهم - وكذلك كان دأبه ﷺ في كثير مما كان يعرض له من أمور الحرب والجهاد - وإن كان أوفرهم عقلاً، وأنفذهم في المشكلات رأياً، وأمضاهم في الحادثات عزمًا - ليضع سناً صالحة يستتئها ملوك الأنام، ومن يكون بيدهم زمام الأمور، والأحكام.

قال لهم ﷺ: «ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟». قال أبو بكر: يا رسول الله، قومك، وأهلك، استبقهم واستأن بهم، لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك.

(١) صدع: شق.

(٢) القتام: الغبار الأسود.

وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك وكذبوك، اضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكُفْرِ، وإنَّ الله أغناك عن الفداء.

فسمع رسول الله ﷺ رأييهما، وأصاخ إلى غيرهما، ولكنه دخل مَخْدَعَهُ، لم يُدِّ رَأْيَا، ولم يتخذ حُكْمًا.

واشْتَجَرَت^(١) الآراء بين المسلمين، مِنْ قَائِلٍ يَقُولُ: إنه سيأمرُ بقتلهم . . . ومن قائل يقول: إنه سَيَقُكُ إِسْرَاهِمَ . . . وما هو إلا أن طلع عليهم فقال ﷺ «إن الله ليلين قلوب رجالٍ فيه حتى يَكُونُوا أَلَيْنَ مِنَ اللَّبَنِ، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشدَّ من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم حين قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢). وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى حين قال: ﴿إِن تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِن تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٣).

وإن مثلك يا عمر كمثل نوح حين قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾^(٤) وإن مثلك يا عمر كمثل موسى حين قال: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَأَشْدُدْ عَلَيْنَا قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٥) أنتم عالة، فلا يبقين أحدًا إلا بفداء أو ضربة عنق.

وشاع في جناب مكة وبين أندية قريش أن محمداً قد أعلن في الأسرى أنه خيرهم بين القتل والفداء، فحفوا سراعاً إلى المدينة، ودفعوا المال، وفكوا عن أسراهم الأغلل.

* * *

وما انتهى رسول الله ﷺ من أمر هؤلاء الأسرى، حتى أوحى الله إليه يُعَانِبُهُ فِي إِثَارِ الْفِدَاءِ عَلَى الْقَتْلِ، إذ كان المسلمون - في بدء دولتهم ومطلع ملكهم - حاجتهم إلى إذلال عدوهم بالقتل أشد، ليعظم شأنهم، ويعلو في الأرض سلطانهم، وتستقر في نفوس

(١) اشتجر القوم: تخالفوا وتنازعا.

(٢) سورة: إبراهيم، الآية: ٣٦.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ١١٨.

(٤) سورة: نوح، الآية: ٢٦.

(٥) سورة: يونس، الآية: ٨٨.

الأعداء هيبتهُم، وتضعف شوكة أعدائهم، وهم في عُنفوان قوتهم وكثرتهم، أما المال فهو نفعٌ عرضيٌّ ومرتبةٌ ثانية بعد إضعاف العدو بالقتل.

على أنه سبحانه وتعالى جرت سُنَّته، واقتضت رحمته وحكمته ألا يؤاخذَ مُجتهداً وإن أخطأ، ولا مُتأولاً وإن أضله رائدُ التوفيق، فقال: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ﴾^(١) في الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾^(٢) لَوْلَا كَتَبَ اللَّهُ سَبْقَ لَمَسِّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾^(٣).

(١) يشخن: يبالغ في قتل الكفار.

(٢) عن ابن عباس في قوله: ﴿لَوْلَا كَتَبَ اللَّهُ سَبْقَ لَمَسِّكُمْ﴾: يعني في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى لكم.

(٣) سورة: الأنفال، الآية: ٦٧ و٦٨.